

الاجتياح الثقافي السينمائي

ساد العالم بُعيد الحرب العالمية الثانية تيار إعلامي رَوَّق له البعض وهَلَل ، وهو: تشابك الثقافات ، وتلاحم الحضارات . نعم .. هو شىء في مظهره طريف ظريف . فأدوات الإعلام والاتصال ، ومواد العلوم والفنون تطورت وتَفَشَّت وعلَّتْ ، ودخلت كل بيت ، وتسَلَّلَتْ إلى كل كوخ ، وتسربتْ إلى كل كَفَر وكَهْف ونجع ، في أى مكان على الأرض . فلا ضَيْرُ أن تلتقى الأمم والشعوب في ساحات الفكر والتنوير والمعرفة ، فتغترب منها وتشرب وتُعَبِّ .

وبعد فترة ، اكتشف « الحكماء » أو « العقلاء » من نوى الفطنة والبصيرة ، أن خطر البرق في البريق ، ولفح الحرق في الحريق ، أو كما قال القدماء : مَسَرَى السم في العسل . وليس هنا مجال الإسهاب في سرد البواعث والأسباب ، ولا كشف النقاب عن مقاصد دفيئة - سياسية ، ومذهبية ، وتجارية لا أخلاقية ... - توارت خلف الواجهة وركبتْ هذا التيار المتنامى ، ودفعته ، وزينَتْ له ، لتحقيق مآرب فضلا عن مكاسب .

وفي مجال السينما - وهى جزء حيوى من وسائل الإعلام والثقيف وترويج الأفكار والاتجاهات والدعايات والمستجدات (ومنها: القيم الاجتماعية والأخلاقية المنضبطة والثائرة على الانضباط) - نقول : هى في مجالها تعطى وتأخذ ، تضيف وتسحب ، ترشد وتشتت ، وإن لها في ذلك فضل في الإرشاد والإضافة والعطاء ؛ وإنَّ عليها في ذلك الأمر لوم أو تثريب . فهى وسيلة أو أداة ، ومَنْ يُحَسِّنُ اتخاذ الوسيلة

ينفع ويُمْتَع ، ومن يجيد استخدام الأداة في الخير والإصلاح يُشكر ويُجْر . ومن فعل خلاف ذلك عن استخفاف وخُبْث ، فقد أفسد وخرَّب .

ومن هنا ، لم يكن غريبا ولا مُسْتَهْجَنًا أن ترتفع أصوات في السنوات الأخيرة ، بعند انطلاق الشركات والمؤسسات الصناعية والمالية والاقتصادية الكبرى نحو «العالمية» ، وبعد توقُّع اكتساح نظم رفع الحواجز الجمركية وتخطيها لكل الحدود والقيود في مطلع القرن الحادى والعشرين ، لم يكن غريبا أن ترتفع أصوات محدِّرة منذرة ، ليس فقط من بين « العقلاء » داخل المجتمعات والدول التى يسمونها نامية أو متخلفة ، وإنما أيضا من بين « الحكماء » داخل أوروبا ذاتها - وخاصة فرنسا - الساعية نحو التوحد والتكتل . طالب هؤلاء وهؤلاء « بحماية » الثقافة القومية ، ووضع ضوابط للغزو الوافد بأدواته ، ومن بينها أفلام السينيما وشرائط الفيديو وبرامج التلفزيون والإنترنت . وزاد التحذير والتبصير ، بعد أن تزايدت معدلات الجرائم والانحرافات والتسيبات والتطرفات .. وحاول مثقفون ومفكرون فرنسيون دُفعَ حكومتهم ومؤسساتهم التشريعية والمعنية أن تأخذ الأمر بقدر ما يستحق من جد وحزم ، وما زالوا يحاولون .. ولكن يبدو من الإحصاءات والوقائع العملية أن التيار جارف ، والسيل يواصل الاجتياح ، ولن يعبأ بتحذير أو صياح !

وهذه إحصائية نشرت في أواخر شهر مايو ١٩٩٩ عن مدى انتشار الأفلام الأمريكية وغيرها سنة ١٩٩٨ داخل بعض الدول الأوروبية « المتقدمة » فى الإنتاج السينيمائى ، وتُبين الإحصائية نسبة كل من الأفلام التى عُرضت ، المحلية منها والأجنبية :

الدولة	من الإنتاج المحلي	أفلام أمريكية	أفلام دول أخرى	الدولة	من الإنتاج المحلي	أفلام أمريكية	أفلام دول أخرى
بلجيكا	% ٠,٣	% ٨٦,٩	% ١٢,٨	فرنسا	% ٢٥,٨	% ٦٨,٤	% ٥,٨
ألمانيا	% ٩,١	% ٨٤,٧	% ٦,٢	إسبانيا	% ١١,٨	% ٧٨,٧	% ٩,٥
بريطانيا	% ١٤,٨	% ٨٣,٩	% ١,٣	إيطاليا	% ٢٣,٥	% ٦٦,٣	% ١٠,٢

فهل يفهم من هذه الإحصائية البسيطة شىء... أو أشياء؟ ... ربما !!
